

تهمهم في فنادق رخيصة من فئة الليلة الواحدة...

(«أغنية عشق ج. الفرد بروفروك»^(٨))

هذه المقدرة على توظيف المبتذل في حياة المدينة المعاصرة كان على إليوت أن يتعلمها من الفرنسيين، من بودلير ولافورج. فمن هذين «تعلمت»، كما يقول إليوت، «أن تلك المادة التي كانت لدي، ذلك النوع من التجارب الذي يتوفر لدى مراهق في مدينة صناعية أمريكية، يمكن أن يكون مادة للشعر، وأن يكون مصدراً لشعر جديد يمكن اكتشافه فيما اعتبر حتى ذلك الحين مستحيلًا، وعقيمًا، ومستعص على الشاعر...» (انتقاد الناقد، ص ١٢٦).

ولكن مثلما نقول عن إليوت، نقول أيضاً عن حجازي وغيره من الشعراء العرب، فالحديث هنا ليس عن علاقة آلية من التأثر و التأثير يقوم فيها عنصر بالدور الموجب وآخر بالدور السالب، بمعنى أننا لانستطيع القول إنه لولا بودلير لما كتب إليوت قصائده، أو لولا إليوت أوغيره من شعراء الحداثة الغربيين لما وصل حجازي إلى ما وصل إليه. إنها ليست علاقة بسيطة إلى هذا الحد، وإنما هي أعمق وأكثر تعقيداً مما تبدو. ذلك أن الحداثة، شأنها شأن التغيرات الثقافية الكبرى، لا تنشأ كمجرد استجابة لمؤثر خارجي، وإنما هي نتيجة لمخاض طويل من التغيرات الثقافية والاجتماعية والسياسية. أما المؤثر الخارجي فإنه يقوم بدور تحريضي مساعد ينشط التغير ويمده بعناصر جديدة، وهو ما حدث سواء بالنسبة لإليوت في علاقته بالفرنسيين، أو لحجازي في علاقته بالإليوت.

لقد لعبت الحداثة الأوروبية دوراً هاماً بلاشك في نمو الحداثة في الأدب العربي، لكنه لم يكن دوراً أساسياً إلى الحد الذي تتوقف فيه هذه على تلك. ومن أقوى الدلالات على ذلك ما نجده من فروقات بين الحداثتين في موقف كل منهما إزاء الرومانسية. فعلى الرغم من الموقف السلبي الذي اتخذوه إزاء الرومانسية، لم يسع الحداثيون العرب إلى شعرية مفرغة من الذاتية، كما هي الحال لدى باوند و إليوت (في مرحلة «بروفروك» و «الأرض اليباب» على الأقل) مثلاً. وحتى حين حاول البعض منهم ذلك، فإنهم لم

(٨) T. S. Eliot, *The Complete Poems and Plays: 1909-1950* (New York: Harcourt Brace & World, 1971).